جامعة حمص
كلية التربية الأساسية
قسم التاريخ
المحاضرة الأولى
المادة
عصر الرسالة
مر. د. نبهان غانم

١٤٣٦ ٢٠١٥
الفصل الثاني

حياة الرسول ﷺ منذ الولادة وحتى البعثة

ان التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي مرت بشبه جزيرة العرب حتى القرن السادس الميلادي، كانت كما أوضحتا في الفصل السابق، تتراوح بقرب بزوغ فجر جديد، يقلب موازين القوى في المنطقة، ويفتح الطريق أمام تحولات كبيرة، ليس على مستوى شبه الجزيرة العربية فحسب، بل على مستوى العالم والاسماعية جمعاء.

وكأنما يلتقي مع سنة الله في كونه، أن يكون المصطفى لقيادة عملية التغيير الكبرى، رجلا من صميم العرب، ومن إبناء مدينة مكة، حيث بيت الله الحرام الذي يحج الله الناس من مختلف أنحاء شبه جزيرة العرب، وحيث تقيم قبيلة قريش التي كانت تمارس دورا قياديا بين العرب في كافة المجالات، الاقتصادية والسياسية والثقافية.

ان رسالة التغيير التي حملها محمد بن عبد الله ﷺ، هي الإسلام، وهي دعوة دينية سعت لإجراء تغييرات شاملة في أوضاع العرب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فكيف تيسر لرسول الله ﷺ أن يضع على هذه الأمانة نظيفة، ويخلق
أهدافها الكبرى خلال حياته الحافية بالأحداث والتطورات. إن الإجابة عن ذلك تتطلب
المعرفة بالحديث عن أجداده الذين أخذ عنيهم العديد من الصفات والمؤهلات التي كان لها
تأثيرها على مسار حياته واعماله وخصوصاً واننا قد تحدثنا في الفصل الأول عن بعضها التي نشأ
فيها وحقق اعماله الكبرى في اطارها.
أولا: نسبه وأجداده:
تتفق المصادر التاريخية على عروبة محمد بن عبد الله وانتسابه إلى قبيلة قريش، وهي تقدم لنا سلسلة نسب متصلة بالخلافات في هذا المجال. بدأ بالحيد لتصبح عدنان، وعلى
النحو الآتي: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبادة من فقيه بن قطبة بن
كلااب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة
بن مدركة بن الباس بن مضرين بن نزار بن بعد بن عدنان. ان هذه السلسلة من
النسب هي ما يلقى على ذكره النسباء العرب، أما ما بعد ذلك وحتى نصيبه إلى
الismaعي بن أبا اسماعيل (عليه السلام)، فهي من الأصول المختلفة على تفاصيلها كثيرة بعد
عدها عن عصر الرسالة.
وقد لوحظ أن نسب رسول الله ﷺ يليق عند فهر يجمع بطن قريش لأن من
كان من ورث فهر فهو قريش، كما يليق نسبه عند عدنان. نسب جميع القبائل العربية
الشمالية التي تدعى بالعدنانية.
وكان من أجداد محمد بن عبد الله الذين اضطروا بدور كبير في حياة مكة: قصي بن
كلااب وهاشم بن عبد مناف، وقد أوضحنا دور كل منها عند الحديث عن أوضاع مكة
السياسية والاقتصادية في الفصل الأول. أما جده الباهر، وهو عبد المطلب بن هاشم،
فانه الضروري القاء بعض الأضواء على حياته ليس بسبب هذه الصفة فقط، وإنما
لأنه قام من محمد ﷺ بإلغاء قتال الآب ووالدته عبد الله.

(1) ابن اسحاق: الخوازي (السير)، ص 2، ابن تغيوة: المعايير، ص 270، ابن حزم: جواهر السيرة، ص 2.
(2) المصدر نفسه.
(3) ابن حزم: جواهر السيرة، ص 3.
نشأ عبد المطلب في مدينة يثرب، وذلك لأن أمه سلمى بنت عمر من بني النجار، كانت من أهل يثرب، وقد تزوجها هاشم عند أهلها ثم سافر بتجارته إلى غزوة وهناك توفي ودفن، وقد اشارت المصادر إلى أنه كان هاشم أولاد آخرون إلا أنهم جميعاً لم يتركوا لم عقباً، لذا فإنه ليس في الأراضي هاشمية إلا من ولد عبد المطلب بن هاشم (1).

وحين بلغ عبد المطلب سن الفتى والشاب، قدم عمه المطلب بن عبد مناف إلى يثرب لأخذته إلى مكة. وحين عارضت أمه ذلك أقنعها بقوله: «أبن أخي، قد بلغ وهو غريب في غير قومه، ونحن أهل بيت شرف قومنا، واقوم يبلده خير له من النمامه، وهو ابنك حيث كان» (2).

ويذكر أن اسم عبد المطلب كان عامراً (3)، وقد أطلق عليه أيضاً اسم شيبة، لأنه ولد في رأسه شيبة (4). كما عرف باسم عبد المطلب بعد مجيئه إلى مكة لأنه حين دخلها خلف عمه المطلب بن عبد مناف قالوا: «هذا عبد المطلب فلزم اسم وغلب عليه» (5).

لقد كان منصب الرفادة والسقابة في مكة بيد المطلب الذي شغله بعد وفاة أخيه هاشم، فالتأتفي المطلب «ولي عبد المطلب بن هاشم الرفادة والسقابة، فلم يزل ذلك بيده يطمع الحاج ويسقهم في حيام من أدم بمكة، فلما ستي زمزم ترك السقي في الحيام بمكة وسقاه من زمزم حين حفرها، وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرقة فيسقيهم» (6).

وقد ذكر ابن اسحاق أن قريشياً نازعت عبد المطلب حين حفر زمزم، وقالوا له «انها بتر أبينا السعيل، وإن لنا فيها حقاً، فأشركونا علك» (7)، غير أن عبد المطلب رفض الاستجابة لطلب قومه، مما اضطرهم على الاتفاق إلى عرض هذه المنازعه على كاهن بني سعد بن هذهم بأطراف الشام لتحكم بينهم (8).

---

(1) ابن كثيرة: المعراف، ص 346.
(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 1، ص 82.
(3) ابن كثيرة: المعراف، ص 347.
(4) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 79.
(5) ابن كثيرة: المعراف، ص 348.
(6) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 83.
(7) ابن اسحاق: المغازي، ص 11.
(8) المصنف، ص 3.
ويبعد أن السقاية في مكة وكذلك الرفادة كانت تسر دخلا على من يتولى
ادارتها (14) لذا فقد سعت بعض الأطراف في مكة إلى مشاركة عبد المطلب في ادارة
هذا المكان. كما أن ذلك يدل على أن مركز عبد المطلب في هذه المرحلة لم يكن قويا في مكة
بسبب حداثة اقامته فيها، ولذا افراد عشيرته، لذا فقد ذكر ابن اسحاق وغيره ان
عبد المطلب ندر حين لقي من قريش في حفر زنموز مالى. لذا ولد له عشيرة نفر ثم بلغوا
معه حتى يمتعون، لينحن أحدهم لله تعالى عند الكعبة. فلم تؤثر بنوه عشرة;
الجارث، والزبير، وحجبل، وضرار، ومقيوم، والقبط، وابو هب، والعباس، وحمزة، وابوب
غالب، وعبد الله، وعرف انهم سيعمونه، جمعهم ثم أخرجهم بنذره التي نذر ودعاهم
إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوا له (13). وقد ذكر ابن اسحاق أن عبد المطلب تخلص من
هذا المأزق الشديد الذي يقضي بأن يضحي بأحد ابنائه وكانت القرعة قد قمت على
عبد الله، بأن قدم قرانيًا مائة من الأبل بمثابة فدية. عن دم ولهده (14).

ان قانون عبد المطلب بفروض هذا النذر، بتقديم مائة من الأبل فداء عن دم ابنه
عبد الله يدل على أن حالة عبد المطلب الاقتصادية كانت جيدة في هذه المرحلة، كما أن
مركزه السياسي بين قومه قد غدا قويا بعد ان أصبح لديه عشيرة ابتدأ يشدون من أزره في
المواقف الصعبة. وقد مكتبه ذلك من ترويج بناته من أفضل عائلات مكة
وأواتها (15)، فقد تزوجت صفاء (كانت أمها من زهرة) أولى ابنة حرب بن أمية
(شيخ عبد شمس)، ثم العرقوب بن خويلد (أسد)، وأما عائكة (أمها من مخزوم) فقد
تزوجت ابًا أمية بن المغيرة (مخزوم) ....... (15)، وهكذا ...

لقد مكن عبد المطلب من خلال خدمته لقومه واقامته لعلاقات مصادرة مع أخرى
الأمر القرشية أن يحتل مركزا متقدما بين وجهة مكة ورحلاتها. بل ان جميع المصادر
العربية تتحدث عنه حين ذهب لفاوضة أباه الحبشى الذي جاء لاحتلال مكة بصفته
سيد قريش وزعيمها (16). ولابد ان فشل حملة أباه المريج على مكة قد عزز من مكانة

(14) ابن اسحاق: المكتاتب، ص 98 - 99.
(15) ابن اسحاق: المكتاتب، ص 10 - 18.
(16) ابن اسحاق: المكتاتب، ص 99 - 100.
عبد المطلب في نظر الناس يجعلهم ينحنونه حينهم ويتهمهم على الرغم من أنه لم تصل إليه تفاصيل موقفه وما دار بينه وبين أخوه بصورة مقنعة ودقيقة (18).
ولازدوا المصادر التاريخية بمعلومات مفصلة عن ابن عبد الله، إلا أنها تفق على أن كان من أصغر ابنائه، بل إن الطبري يصف بأن عبد الله كان "أصغر ولد أبيه" (19). غير أن ذلك غير صحيح لأن حجته كان أصغر منه كثيراً وذلك لأن عمر كان قريباً من عه رسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب، وأخاه موفق الرضاعة (20).
أما اخوته عبد الله لأمه وأبيه فكانا كلا من الزبير وعبد مناف الذي اشتهر باسم المطلب، وكانت امهم فاطمة بنت عمرو بن عائشة بن عمر بن مخزوم، وقد أضافها أحد الرواة بيهم عبد الكعبة، أما اخواته لأمه وأبيه فهن كل من عائشة ويرميمة (21).
وقد أشير ابن ابن عبد الله "كان أجمل رجال قريش" (22) وكان أحب الناس إلى عبد المطلب (23)، ولا تزروا المصادر بمعلومات عن حياته في صيام وشبا، وكل ماوصلت لنا عن أخياره تذكر بزواجه ووفاته.
فناذر ابن اسحاق عن عبد المطلب أخذ بيد عبد الله "حتى أن به وجب بن عب
مناف بن زهرة- وجب بن عبده سيد بني زهرة نسباً وشرفاً - نزحه آمنة بنت وحب بن عب
مناف بن زهرة، وهي يومني أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً" (24).
فذاوثه أحد الباحثين إلى أن آمنة بنت وجب من بنى زهرة من بنى النجار من
مدينة يثرب (25). وقد أشار لوبيكي رأيه في هامش كتابه إلى كل من ابن هشام في السيرة
النبوية وابن سعد في الطبقات الكبرى. غير أنه لدى الرجوع إلى هذه المصادر تبين

(18) الدي: معاصرات في تاريخ العرب، ص 230-231.
(19) تاريخ الرسول والفيد: ج 2، ص 239.
(20) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 95.
(21) الطبري: تاريخ، ج 2، ص 239.
(22) المصادر، ج 2، ص 239.
(23) المتنبي: التراجم، ص 24.
(24) جراد علي: تاريخ العرب في الإسلام، ص 94.
(25)
أنها يذهبان إلى عكس ما ذهب إليه الباحث ويؤكدان أن آمنة بنت وهب بن عبد مناف
ابن زهرة بن كلاب من قبيلة قريش (21).

ويدون عبد الله كان يشتغل بصورة أساس بالتجارة شأنه في ذلك شأن غالبة أفراد
قبيلته، ونشر الروايات التي تحدثت عن الظروف التي احاطت بوحاته، كأنه كان قد خرج
إلى الشام إلى غزة في عين عرب قريش يعملون تجارات (22)، مما يدل على أنه كان
يتم في القوافل التجارية بصفة إجبار لذئ أصحاب القوافل الأثرياء، ويظهر أن ذلك
كان أمرًا طبيعيًا لمن كان في مثل سن عبد الله، إذ أنه لم يكن قد تجاوز الخمسة والعشرين
من العمر.

وقد رواية تشير إلى أن أبوه كان قد بعث إليه المدينة ليشتري له قطعات (23)، غير
أن المصادر ترجح صحة الرواية الأولى (24)، فذكر أن عبد الله كان قد أصابه المرض لدى
عودته من الشام «فقرًا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يمثّل مرض، فقال: أنا أخفف
عند أخوالتي نبي علي بن الحمير، فأقام عندهم مريضا شهرا، ومضى أصحابه بعد أن
مكث، فسافر عبد المطلب عن عبد الله، فقال خلفًا عند أخواله نبي علي بن الحمير،
وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث، فوجهه قد توفي ودفن في دار
النابغة، وهو رجل من نبي علي بن التعاون» (25)، وكان عمر عبد الله حين وفاته خمسا
وعشرين سنة (26).

لم يترك عبد الله لدى وفاته سوى جاريه تدعى أم أيمن واسمها بركة، وقد تولت
حضانة الرسول عليه الصلاة والسلام، وخمسة جبال وقطعة غنم (27).

(21) ابن هشام: السيرة، ج 1، ص 156، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 94-95.
(22) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 99.
(23) المقريز: ج 1، ص 99.
(24) المقريز: ج 1، ص 99.
(25) المقريز: ج 1، ص 99.
(26) المقريز: ج 1، ص 100.
(27) المقريز: ج 1، ص 100.
تأثرت المصادر التاريخية تفاوتاً كبيراً في مسألة تحديد تاريخ ولادة الرسول ﷺ وعمره حين وفاته. وصل هذا الخلاف في تقدير عمره إلى خمس سنوات. ففي الوقت الذي تذكر فيه بعض الروايات أنه توفي وعمره ستون سنة تذهب روايات أخرى إلى أن عمره كان ثلاث سنوات، وبناءً على ذلك تؤكد روايات أخرى أن عمره كان خمساً وستين سنة (٣٣).

انما يساعد الباحث على تحديد تاريخ ولادة الرسول ﷺ هو الاستعانة بالتواريخ التي تتفق عليها معظم المصادر المعتمدة. ومن جملة هذه التواريخ، تاريخ وفاة الرسول ﷺ حيث تتفق على أنه توفي في السنة الحادية عشرة للهجرة، وهي توافق سنة ٥٧٢ م (٣٤). كما تتفق معظم المصادر على أن عمره حين تزوج عليه الوجهي رائدة الإسلام كان أربعة سنوات (٣٥)، وأنه يدعو إلى الله في مكة ثلاث عشرة سنة قبل أن يهاجر إلى المدينة (٣٦).

وبذلك يمكن للباحث أن يقرر أن الرسول ﷺ قد توفي في سنة ٩٠٠ م، وأنه قد وُلد في سنة ٥٦٩ م، وأن عمره حين وفاته كان ثلاث سنوات. أما الروايات التي تذهب إلى أن عمره حين تزوج عليه الوجهي كان ثلاث سنوات (٣٧)، فإنها تبدو لنا روايات ضيقة وذلك لأنها جاءت على خلاف ما اتفقت عليه معظم الروايات، بالإضافة إلى أن القرآن الكريم كان يعد سن الأربعين وهي سن الاكتساب والنفس. وقد أشار إلى ذلك بقوله: "حتى إذا بلغ اشدنه في اربعين سنة، قال رب أوعزني ان أشكر نعمتك التي انعمت علي وعلي وعلي" (٣٨).

أما عن الظروف التي ولد فيها الرسول ﷺ، فإن معظم الروايات تذكر أن والده توفي وهولازيم في بطن أمه، أي أنه ولد ينتمي إلى الأب (٣٩)، غير أن المصادر تورد روايات أخرى.

المصادر:
٣٣ الطبري: تاريخ، ج ٣، ص ٢١٤-٢١٦، السعدي: مرح الذهاب، ج ٢، ص ٢٠٨-٢٠٨.
٣٤ الطبري: تاريخ، ج ٣١، ص ٢١٧، الميل: معاريكت في تاريخ العرب، ص ٢٣٣.
٣٦ السعدي: مرح الذهاب، ج ٦، ص ٢٩٢، ابن حزم: جامع السيرة، ج ٢، ص ٢٩٨.
٣٧ الطبري: تاريخ، ج ٢٦، ص ٧٢٩.
٣٨ سورة البقرة، الآية ١٥، الميل: معاريكت في تاريخ العرب، ص ٢٣٩.
٣٩ ابن اسحاق: المازري، ص ١٠٩، ابن هشام: السيرة، ج ٦، ص ١٥٨، ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص
مقادها أن الرسول وُلد في حياة والده، وإن والده حين توفي كان عمره وفقاً لحادي الروايات ثمانية وعشرين شهراً (٤٠)، بينما تذهب رواية أخرى إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين وفاة والده لم يكن قد اكمل ثلاث سنوات من العمر (٤١). في الوقت الذي تذهب رواية أخرى إلى أن والده قد توفي وهو في السنة الثانية من مولده (٤٢)، وتذهب رواية أخرى إلى أن والده توفي وعمره سبعة أشهر (٤٣). في حين تقرر رواية أخرى أن والده توفي بعد مولده بشهرين واحداً (٤٤).

إن التضارب الشديد بين الروايات التي تتحدث عن عمر الرسول صلى الله عليه وسلم تزيد من معنى غير جدير بالثقة، فضلاً عن مناقضتها ل zarjح معظم المؤرخين من أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعده وفاة والده عبد الله. وإنما يقوي هذا الرأي ما أورده كتب السيرة من تردد المراحل التي قدم في البداية في أخذ من والدته حين سمع بأنه يتم (٤٥). وقد أشار القرآن الكريم إلى حالة اليم التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا تجد بني قاوئم ٠٦٦(٤٦).

لقد ولد الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة في دار والده عبد الله، وهو يقع في موضع يدعى شعب بن بني هاشم، وكان هاشم بن عبد مناف دون الناس، قالوا: وكان عبد الملك قد قسم حقه بين ولده ودعوه بذلك في حياته ثم صار للنبي صلى الله عليه وسلم ابناً (٤٧).

بعد وفاة الولد عليه الصلاة والسلام، أرسلت أمه إم بنت ودب من بني قايين عبد الملك أن "قد ولد للملك غلام، فإن النور إليه... فأنا جاءته نبراته حتى وجدته بما رأته حين حملت به (٤٨)، وطلب منه أن يسميه محمد. وقد ذكر أنه قبل عهد المطلب حين سمع جفده محمد "كيف سميت باسم ليس لأحد من أبائلك وقدكم فقال أني لأرجو أن يعدهم اهل الأرض كلهم" (٤٩).

(٤٠) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ١٠٠.
(٤١) ابن حزم: جامع السيرة، ص ٥.
(٤٢) السيوطي: مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٩٦.
(٤٣) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ١٠٠.
(٤٤) السيوطي: مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٩٦.
(٤٥) ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٢٦.
(٤٦) سيرۃ النجاشی، الآیة ٧.
(٤٧) الأزهري: أشرطة مكة، ج ٢، ص ٢٣٣.
(٤٨) ابن سعد: الطبقات، ج ٣، ص ٢٦.
(٤٩) السيوطي: الرجال الأثنى عشر، ج ١، ص ١٠٠.
وقد أشير إلى أنه لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة هم محمد بن سفيان بن ميشع، محمد بن أميمة، محمد بن حمران بن ربيعة (60). غير أن أحد الباحثين قد أصحى اسمه أكثر من سبعة أشخاص قد عرفوا بهذا الاسم قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، كما ورد هذا الاسم في نقوش عربية قديمة بصيغ مختلفة، مثل محمد وحمد، محمد وجده (61).

ثالثا: حياة محمد ﻣﻬﻤﺎ avec مرضعتها:

مكث محمد ﻣﻬﻤﺎ عند أمه فترة قصيرة من الزمن بعد ولادته حتى يجدون له مرضعة تتولى أمر إرضاعه، وقد ذكر أن أول من أرضعه مولة لأبي له تدعى ثوباً وأرضعته معه آية الله، عبد الله بن عبد الله المعاوسي بلهب ابنه جميع وأرضعته عامه حمزه بن عبد المطلب (62)، فكان هؤلاء الثلاثة آخراء لرسول الله في الرضاعة.

وانما يدعو للتساؤل في هذا المجال عدم اشارة المصادر التاريخية إلى قيام والدة الرسول صلى الله عليه وسلم برضاعة، والناة هذه المهمة بغيرها من النساء حتى قبل أن تجد له مرضعة تتولى أمر حضاتها وإرضاعه. فهل كانت أمه آنية بنت وهر تعاني من بعض المتاعب الصحية التي تمنعها من إرضاعه، ويصاحبها أنها قد توفيت بعد ذلك بسنوات قليلة كما وضود ذلك لاحقاً.

يقول ابن اسحاق أن عبد المطلب أخذ يلمس المراضع لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ولادته (63). ويزو أنه قد قدم إلى مكة بعض المرضعات من بادية بني سعد بن بكر بن هوازن، يلتمسن الحصول على أطفال الإرضاع، وكان عدد حسب إحدى الروايات عشرة سنة (64). فما من إمرأة منهن إلا وقد عرض عليها رسل الله صلى الله عليه وسلم، كتتولى حليمة السعدية - فاذ أقبل لها: « والله أنا، أنت كنها، وقلت ماذا عسي أن تصنع البنا؟ فأما نزوجي بدعو الموتون من أيب الوقود؟ فأما أمها إله ماشي من صراحين، امرأة أخذت رضيعاً غريباً، فلم أجد غيره، قلت لزوجي الحارث بن عبد العزيز،

____________________________
(60) مصادر التأريخ، ج 1، ص 105-106.
(61) جامع على تاريخ العرب في الإسلام، ص 76-77، راجع أيضاً: ابن سيد الناس: عزون الأثر، ج 1، ص 46.
(62) ابن التيمى: زاد الظافر، ج 1، ص 32، ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 108.
(63) المغالي، ص 25.
(64) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 110.
والله إن أكره أن ارجع من بين صواني ليس معني رضيع، لأنطلق إلى ذلك اليم، فلا أخذهن...» (٦٥).

أن النص التلفي الذي يشير إلى أن أرسل الأطفال مع المرضعات إلى البادية كان عادة قرينة تماسكاً الأسر الموسرة في مكة. وقد ذكر أن من أسباب هذه العادة حرص أهل مكة على أن ينشأ أطفالهم في جو صحي بعيدا عن الوباء (٦٦)، ومن أجل أن يتعلموا فصاحة اللسان وخشونة العيش، لقد كانت مكة مهجورة مرتبطة بالبدو الذين يعيشون في مدينة يتلا فيها الناس من قبائلو واجناس مختلفة مما يؤثر على لغتهم وعادات أهلها (٦٧)، فضلا عن اختيارات نقل عدوى الخطر إلى إبنائها، فلا غرابة أن تحرص بعض العوائل الموسرة على أرسل أطفالها الى البادية. وربما كان لأصول قبائل قريش البدوية علاقة بهذه الممارسة حيث ذهب المثل الاعليا مرتبطاً بأخذ البادية على الرغم من اقامتهم الطويلة نسبياً في مكة. وقد روى عن الرسول ﷺ مفاخرًا في نشأته في بني سعد وتعليمه لسانهم قوله لأصحابه: "أنا أعربكم، أنا قريشي، واسترعت في بني سعد بن بكر" (٦٨).

ولاتتفق المصادر في تحديد المدة التي مكث فيها رسول الله ﷺ في بادية بني سعد لدى مرضعته حليمة السعدية. فقد ذكر ابن إسحاق أن عمداً سعى قد بني في كشف حليمة ستين، فكان يشتبه لا يشبه الغليان، فوالله ما بلغ سنتين حتى كان غلاماً جفاً - أي الغليظ الشديد - (٦٩)، قدمت به على امه. فكانت هذه الرحلة الأولى من اقامتها لدى حليمة، وهي في حقيقتها فترة حضانة ورضاعة. ثم ان حليمة أقامت امه بمدد أقامته عندها سنة أخرى لأنها "تخشى عليه أو باء مكة" (٧٠)، فوافق على ذلك، غير أن حليمة لم تلبث سوى شهرين أو ثلاثة، حتى أعادتها إلى امه، لأنها خشيت عليه الأفلات والاحداث (٧١)، على حد تعبيرها. وبذلك تكون فترة اقامة الرسول ﷺ في بادية بني سعد أكثر من ستين بقليل حسب رواية ابن إسحاق.

٦٥ (٦٥) ابن إسحاق: المغازي، ص ٢٦.
٦٦ (٦٦) المصدر نفسه، ص ٢٧، السبلي: الرفيق الأشع، ج ١، ص ١٠٩.
٦٧ (٦٧) السبلي: المحرات في تاريخ العرب، ص ٣٣٣.
٦٨ (٦٨) ابن هشام: السبلي، ق ١، ص ١٧٧.
٦٩ (٦٩) ابن إسحاق: المغازي، ص ٢٧.
٧٠ (٧٠) المصدر نفسه، ص ٢٧.
٧١ (٧١) المصدر نفسه، ص ٢٧.
وقد ذكرت بعض الروايات أن اقامة الرسول ﷺ لدى حليمة السعدية قد امتدت إلى أربعة سنوات (112) ، في حين ذهبت روايات أخرى إلى أن الرسول ﷺ قد بقي عند مرضعته خمس سنوات (113) .

وعلى الرغم من أنه لا توجد بين ابنيا قرائن قاطعة لترجيح رواية دون أخرى ، إلا أن ما وصلنا عن اعتزاز الرسول ﷺ بأن لهما - أي فجته - في الحديث ﴿latin phrase﴾ (114) ، وأنه كان يرعى الغنم في بني سعد بن بكر (115) ، وأنه كان يرعى الغنم في بني سعد مع أبيه في الرضاية (116) .، يرجح أن مدة اقامتهما كانت تجاوز خمس سنوات.

وينبغي أن فترة اقامة الرسول ﷺ في بني سعد قد تركت أثرًا عميقًا في نفسه ﷺ ، وجعلته يشعر تجاه مرضعته حليمة وأبنائها وكأنها رادداً لهما ، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا فقد امتدت مواجهته لمجلسات وصلته بها أكثر من أمه. أما إخوته من الرضاية من أبنائها وهم كل من عبد الله وأنتييسة وذدمة (المعرفة بالشيهاء) (117) ، فقد كانت صلتهم بهم أعمقًا من مجرد صلة أخوية بالرضاعة لطول اقامتهم بينهم ولأنه كان وحيدًا ، فلم يكن له أخوة وأخوات من أمه وأبيه .

وقد كان الرسول ﷺ عالقًا في حليمة بعد بلوغه وزواجه ، فقد ذكرن حليمة قدمت على رسول الله ﷺ بعد زواجه ﴿latin phrase﴾ (118) ، فشبت تجده في جدب البلاد وعلاقته الماشية ، فكمل الرسول ﷺ خديجة فيها فأعطتها أربعين شاة وبيراً موضعاً للضيعة وانصرفت إلى أهليها (119) .

وتحين قدمت عليه الشيهاء ضمن وفد حوازن ، رحب بها بجبرية وعمد على تدائه فيسطه لها فقعتت عليه (118) ، كأحسن استقبال وقد حوازن الذين جاؤوه بعد هزيمتهم في معركة حنين طالبين أن يرد عليهم سبهم ، وأموالهم ، وكان كما قاله ﷺ، أنهم من الرضاية أبو...

(112) ابن سيد الناس: عين الأنهر ، ج 1 ، ص 53
(113) ابن سعد: الطبقات ، ج 1 ، ص 112 ; ابن تيبي: المغافر ، ص 79 ; السعد ، ج 2 ، ص 297
(114) ابن سعد: الطبقات ، ج 1 ، ص 113
(115) ابن هشام: السيرة ، ق 1 ، ص 117 ; السبلي: الرقيق الأثانية ، ج 1 ، ص 114
(116) ابن بكر: المعاصر ، ص 25
(117) ابن سعد: الطبقات ، ج 1 ، ص 113 ; ابن البقرة: زاد المداد ، ج 1 ، ص 47
(118) المعلولى ، ج 1 ، ص 114 ; ابن المهد: زاد الكلام ، ج 1 ، ص 77
رابعاً: حياة محمد ﷺ مع أمه:
بعد عودة محمد ﷺ من عند مرضته حليمة السعدية إلى أهله في مكة، عاش إلى جوار والدته مدة تقرب من سنة حسب أغلب الروايات، ثم ان أمه عزمت على السفر إلى المدينة بصحبة ابنها وجاريتها أم ابن، رما بهدف زيارة قبر زوجها عبد الله هناك، وتعريف الرسول ﷺ بأخوال أبيه ومشاهدته قبره.

وحين وصلت إلى المدينة نزلت في دار النايفة من بني التجار فأقامت به عندهم شهرًا. وقد كان للرسول ﷺ ذكريات حية في نفسه من أثر هذه الزيارة. فكان يذكر أمورًا كانت في مقدمته ذلك بعد هجرته إلى المدينة، فقد ظل في أظلم بني عدي بن النجار فترة وقال: كنت ألعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الألم، و كنت مع غلام من أخواله ينظر طلاراً كان يقع عليه. ونظر إلى الدار وقال: هكذا نزلت أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبد المطلب، وأحسن العمر في بشر أبي عدي بن التجار.

وبعد انقضاء زيارة أمه نزلت وهو للمدينة توجهت عائدة إلى مكة بصحبة ابنها وجاريتها، إلا أنها وضعت في الطريق مرضًا شديدًا أدى إلى وفاتها في موضع بين مكة والمدينة يدعى الأبواء. وقد دفنت في ذلك الموضع.

(69) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 114.
(70) الصدر الشهيد، ج 1، ص 15.
(71) المصدر نفسه، ج 1، ص 111; ابن شهاب: السيرة، ج 1، ص 198.
(72) ابن سعد: الطبقات، ج 1، ص 119.
(73) المصدر نفسه، ج 1، ص 111; ابن شهاب: السيرة، ج 1، ص 198.